«تغريبة حارس المخيّم» لسعيد الشيخ... غربة أخرى في حياة الفلسطينيّ

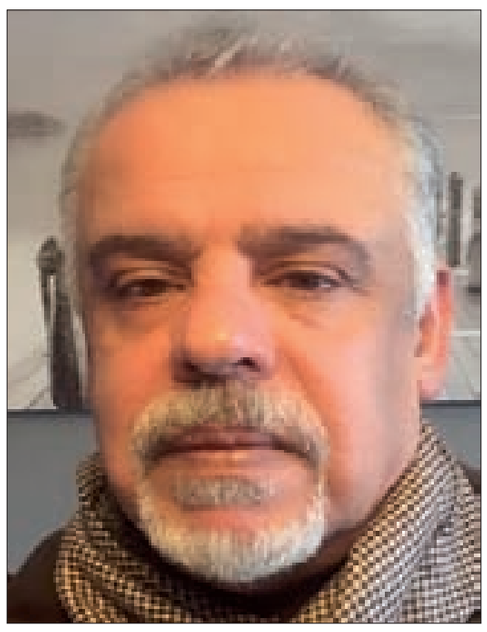

ستوكهولم ـ سمر الصالح

في رواية «تغريبة حارس المخيّم» الصادرة حديثاً للكاتب الفلسطيني سعيد الشيخ عن «منشورات ألوان عربية» في السويد، كل الطرق تؤدّي إلى السرد بحرفية الكتابة الدرامية مهما اقترب النصّ من التوثيق واتكأ على مفاصل تاريخية حفرت آثاراً فجائعية في الحياة الفلسطينية. وتعدّ هذه الرواية العمل الروائي الأول لسعيد الشيخ بعد كتب عدّة أصدرها في مسيرته الأدبية توزّعت بين الشعر والقصة القصيرة.

هي غربة أخرى، كما يقول الشاعر محمود درويش في إحدى قصائده، يستحضرها سعيد الشيخ في كتابة هي مزيج من الواقع والخيال ضمّتها أربعة فصول متلازمة بين السردي والتاريخي، وإن بدأ هذا التاريخ من عند مجزرة «صبرا وشاتيلا»، فهي لن تنتهي إلا عند النهايات العميقة. عند يوم القيامة الذي يشهده «يوسف سعد الدين» بطل الرواية وزوجته «أمينة» وهما في زيارة لربوع الوطن المغتصب. حيث يشهدا بأمّ أعينهما كيف دولة الاحتلال تتفسّخ بتدخّل من السماء. ولكن وحتى ذلك التاريخ الذي يبقيه الكاتب غامضاً ومتأرجحاً بحدوثه أو باحتمالية حدوثه، فإن الرواية تحفل بالشقاء الفلسطيني وتحدّيات الوجود. وذلك تبعاً لقاعدة لا يشذّ عنها إلا القلائل من كتّاب الرواية، وهي أنّ المنجز الروائي لكي يظلّ حاراً ومؤثراً وجذاباً يجب أن يكون توأم الملحمة لا ينفكّ عن الهمّ الإنساني وخصوصاً الفجائعي؛ لأنه أكثر رسوخاً في الذاكرة الجمعية.

الفصل الأول: المجزرة... نياماً جاءتنا الفؤوس

وكأن الرواية هي حياة ثانية لأبطال تخطّاهم الموت؛ وأيّ حياة؟ «يوسف سعد الدين» وزوجته «أمينة» وابنهما «عمر»، و«زهرة» التي ستصبح ابنتهما بالتبنّي بعدما انتشلتها «أمينة» من فم الموت وهي على صدر زوجة أخيها المقتولة. هؤلاء جميعاً كُتب مصيرهم على غير مصير الآلاف من أهل المخيّمَيْن الذين حَصدت المجزرة أرواحهم. وليس المهمّ هنا إن جاء بهم الكاتب من الواقع أو أوجدهم من خياله. المهم في السرد هو الضوء الذي سيُسلّط على حياتهم بعد المجزرة لتصبح الكتابة بمجملها كتابة درامية مكثّفة تحمل دلالات عن أهوال لا تنفكّ عن السيرة الفلسطينية. وعلى رغم أن مجزرة «صبرا وشاتيلا» صارت في ذمة التاريخ وتناولها التوثيق من جوانبها كافة، إلّا أنّ السرد الروائي في هذا الفصل يجعل القارئ يمسك أنفاسه وهو يتابع تحرّك بطل الرواية بين الجثث الملقاة في الأزقّة الضيقة.

يغوص الكاتب في أدقّ التفاصيل وإلى أعماق الكائن الإنساني المفجوع وهو أمام الهزيمة والخسارة، ويصف ما غفل عنه التوثيق كشرط أساسيّ يقوم عليه العمل الروائي بارتباطه بالهمّ الإنساني: «لا لوعة في هذا الكون تضاهي لوعة امرئ بأمّه وأبيه وهما يُذبحان مع إخوته أمام نظره، وهو لا يدري أيضاً في أيّ لحظة يأتي عليه الدور. لا أستطيع أن أصف كيف هو الشعور، أحتاج إلى كلّ لغات الأرض وقد لا تفي في وصف شعور فقدان الوالدَيْن والإخوة بضربة واحدة وبظروف غير طبيعية. لا أتخيّل جحيماً فوق هذا الكوكب يماثل هذا الجحيم». (ص 15)، وجحيم البطل الذي تمنّى الموت بين من ماتوا يجد له الكاتب مبرّراً لنجاته التي تسعد الأموات في ألّا يندثروا وتندثر قضيتهم مع مواراتهم في المقابر الجماعية. «كم مقبرة جماعية أيّها الجسد، يا جسد الفلسطيني المقطّع... شريداً تمضي في الحياة واللحد لا يلمّ مماتك كما هيّأك الخالق، كأنك مختبر للوحشية، مسيح العصر؛ من سلالة النور منذوراً للشقاء والآلام، تحمل على ظهرك وطنك وتجوب الكوكب». (ص 30)

لا يغلق الكاتب هذا الفصل إلا مع حضور بعثة أممية إلى مسرح المذبحة، جاءت تبحث عن ناجين لإخراجهم من الجحيم ولتخفيف الآلام والمخاطر التي ما زالت تحوطهم. فيهاجر بطل الرواية غير مقتنع مع عائلته الصغيرة إلى السويد، ويجسّد الشيخ ذلك بمشهد مؤثّر في حوار وجدانيّ يدور بين البطل وطيف جدّه الذي مات في فلسطين أيام النكبة. وكأنه كُتب على الفلسطينيّ ألا يغادر موته وحصاره إلّا عميقاً في الشتات حاملاً وطنه على ظهره.

الفصل الثاني: أيّها الثلج، كيف الشقاء في بياضك؟

في هذا الفصل يقترب السرد من الكتابة التسجيلية بعدما تخفت أصوات الدراما التي رافقت فصل المجزرة، إذ يسجّل الكاتب هنا بدايات نشوء الوجود العربيّ في السويد خلال ثمانينات القرن الماضي. الحفاوة السويدية تجعل بطل الرواية مع زوجته يشعران بأنهما قد انتقلا إلى عالم مختلف عن العالم الذي غادروه. كانا يحتاجان إلى كثير من الوقت ليفهما البَوْن الشاسع ما بين أدوات المجزرة التي عبثت بجسديهما وروحيهما وبين الأدوات الطبية بأيدي الأطبّاء السويديين التي راحت ترمّم روحيهما من ندوب المجزرة. وليقرّرا أن الإنسانية لم تغادر الكوكب بعد. «بشاشة الأطبّاء والممرّضات؛ لمساتهم الحانية، وحدها كانت بالنسبة إلينا بلسم يردّ لأرواحنا إنسانيتها التي طُحنت في المجزرة، ما جعل أمينة تقول بعدما عدنا إلى الشقة: أنظر كيف يهتمّون بنا. وتبكي». (ص 68).

أحداث كثيرة يشهدها هذا الفصل، وذلك نظراً إلى مرور سنوات عدّة على وجود العائلة في منفاهم السويديّ. وكان على العائلة أن تواجه تحدّيات كثيرة في الصقيع السويديّ إن بدأت من الاختلاف الثقافيّ فإنها لن تنتهي عند سؤال الهوية وسؤال الوجود برمّته. «هل من وجود طبيعيّ خارج وطن الأجداد؟ وهل من وطن طبيعيّ خارج اللغة؟»، (ص 124). كانت العائلة وكلما انخرطت أكثر في المجتمع السويديّ تشعر أن شيئاً ينقص من ذاتها، حتى عندما حصلت العائلة على الجنسية السويدية في وقت كانت السلطة الفلسطينية تبني مؤسّساتها على أجزاء من الوطن المغتصب بحسب «اتفاقيات أوسلو» التي غبنت الحقوق الفلسطينية بحسب بطل الرواية، ما جعله يشعر بالقلق على مكوّنه وكينونته ويطلق سؤاله الذي يشبه الصرخة في ليل الشتات: «هل يصير سياج الوطن أعلى من سياج الاحتلال؟ وهل تصير هذه السلطة الناشئة مقبرة تضمّ رفات أحلام الفلسطينيّ بالحرّية وتقرير المصير؟». (ص 124).

يصير الشقاء في حياة العائلة هنا مضاعفاً، فندوب المجزرة لا تمّحي سريعاً، وشروط الاندماج التي تضعها الحكومة السويدية لا تتوفّر لدى أفراد ما زالت ذاكرتهم تحمل أهوال الاقتلاع وأهوال الحروب التي لاحقتهم إلى المخيّم، وفي أعماقهم يشعرون أنّ المخيّم ما زال يشكّل شخصيتهم وهويتهم. والقول هنا لبطل الرواية الذي يروي الكاتب على لسانه : «ما معنى أن أكون هنا وسط هذه القيمة الإنسانية التي يمنحني إياها القانون السويديّ، وجذوري هناك تجتثّ وترسل إلى المحرقة كي تتمّ الإبادة التي رُسمت لنا منذ قرن من الزمن؟». (ص 124).

تكبر التحدّيات مع مرور السنين، ومع تكاثر عدد أفراد العائلة ودخول الوالدين سنّ الشيخوخة وفقدانهما السيطرة على بعض الأبناء ممّن ولدوا في السويد. وكأنّ ما أنتج في السويد هو للسويد. حيث يثير الكاتب هنا خلاصة مفادها أنّ الحماية الدولية للاجئين هي مصلحة للمجتمعات التي تحتضنهم. وهذا ما يحدث تماماً في وقتنا الراهن مع لاجئين آخرين.

الفصل الثالث: الهاوية... حين اشتعال النيران في الثياب!

«منى» و«بلال» هما ابنا «يوسف» و«أمينة» اللذان وُلدا في السويد، وهما أيضاً ابنا الواقع الذي فرض نفسه بقوّة وترك تأثيراً على السلوك والطباع.

«منى» تبدو واثقة من خياراتها؛ وهي بذلك على عكس «بلال» الذي يبدو متردّداً وتائهاً. وهي ذكية فوق العادة متفوّقة في دروسها وناجحة في علاقاتها الاجتماعية. بنَت شخصيتها على النمط السويديّ على رغم كلّ الحنوّ، والاحتضان العائلي الذي حاول أن يزرع فيها العادات والتقاليد الشرقية. وهذا لم يمنعها من التصرّف تجاه أبيها كما تتصرّف أيّ فتاة سويدية حين يقع الخلاف. «هل هذه ابنتي؟ كيف تكون ابنتي وهي انكسار ظهري وانكسار عنفواني؟ ترسلني وأنا في الستين من العمر إلى السجن بتهمة إساءة معاملتها؟». (ص 188). وقاع الهاوية يتجسّد حين تترك «منى» منزل ذويها لتصبح حرّة من كل ماضيها وفي كنف المجتمع السويدي الذي يشدّ من أزرها.

تتوالى الضربات في حياة العائلة، وتأتي الضربة الثانية من آخر العنقود «بلال». فبعدما عاش تائهاً بين الثقافتين العربية والسويدية ومراهقة متهتّكة، فجأة يهتدي إلى طريق المصلّيات في المدينة، وهناك تتلقّفه «الذئاب» وترسله إلى سورية للقتال إلى جانب «داعش». «ابنك بلال سعد الدين خرج من السويد إلى بريطانيا، ومن هناك سافر مع آخرين الى تركيا ولكن وجْهتهم الأخيرة كانت سورية للالتحاق بمجموعات الجهاديين»... (ص 208). هكذا يتلقّى «يوسف» الخبر من جهاز الاستخبارات السويديّ لتغيم الدنيا في وجهه وتنهار «أمينة» مغمياً عليها في البيت. ثمّ تتوالى الأيّام عليهما وهما يتشاركان في الأمراض؛ منها الحقيقيّ ومنها الوهميّ. كان الانكسار في الروح مهيمناً على الشعور.

كان لبطل الرواية رأي آخر في «الربيع العربي» وقد سجّله في مناجاة طويلة مع نفسه حين علم بوجهة ابنه: «يا ولدي هذه نصرة باطلة، وداعشية متوحّشة كاذبة. النصرة الحقيقية لا تكون إلا للقدس المغتصَبة، وفلسطين هي أوّل الحرّية وهي يقين الكرامة العربية، فلا كرامة ولا حرّية لعربيّ من دون تحرير فلسطين». (ص 208).

الفصل الرابع: انتفاضة الأطياف... حين مشينا إلى الشعاع

«ها هو الوطن يا يوسف، إلى الشرق تنام طفولتك المسفوحة في صفورية الممحوّة، ومنذ الآن عليك أن تكتشف تغييرات روحك لتكتشف ماهيّة الوطن». (ص 218).

كان «يوسف» يدري حينما اصطحب زوجته «أمينة» التي باتت تعاني من داء المفاصل في زيارة للوطن المغتصب، أنه يرمّم الروح من حرائق المجزرة ومن انكساراتها المتراكمة في الشتات. كان يريد للظهر المنحني أن يستقيم بإسناده إلى أشجار الطفولة في قريته التي محاها الاحتلال. ولينال شيئاً من الغبطة بلقاء أبناء عمومه الباقين في البلاد؛ وليغادره الشعور الذي رافقه طوال عمره بأنه مقطوع من شجرة.

في مكان القرية لم يُبقِ الاحتلال إلا قلعة من الزمن البيزنطيّ ومقبرة «الأشراف» التي تحضن رفات أهل البلد، يصادف في يوم زيارة أطلال القرية أن تزحف «بلدوزورات» الاحتلال إلى داخل المقبرة لإزالة قبورها في عملية بحث عن الآثار. «فجأة، هبطت على المكان غيمة سوداء كست الأجواء بظلمة دامسة، حتى ما عدنا نرى شيئاً»... «عند انقشاع الظلمة، انكشف لنا المكان عن بياض يغمر كلّ الوجود حولنا، كنّا نحتاج إلى بعض الوقت لنستردّ حاسّة البصر. أخيراً استطعنا رؤية الجرّافات وقد تحوّلت إلى حطام وخردة مرمية». (ص 261).

هنا، يجعل الكاتب الحكاية تتأرجح بين الواقعيّ والتخيّلي، ويجعل المكان يتّحد في الزمان. بين الحدث واحتمالية حدوثه فاسحاً للغرائب السحرية لأن تفرض نفسها على مشهدية السرد. «يأخذنا البياض فننزل من شرفة القلعة ونجد نفسينا وسطه، يلفّنا ونصير جزءاً منه. أمينة لا تفلت ذراعي، وقد بدأنا نشعر أننا نمشي بين أطياف قامت للتوّ من موتها لتدافع عن تربتها وقبورها». (ص 261).

بتقنيّات سينمائية خالصة، وتبعاً للنهايات التقليدية في انتصار الخير على الشرّ، يطلق سعيد الشيخ نبوءته في زوال الاحتلال المتمثّل في الشرّ والكراهية. «ثمّة ملائكة في السماء ترسل فيروساً إلكترونياً يخترق آلة القتل وينزل بها فتكاً. ثمّة عقاب تنزله محاكم السماء على قوم تجبّروا وسفحوا دماء الآخرين». (ص 263).

خاتمة

إنّ مجيء سعيد الشيخ من عالم القصيدة والقصّة القصيرة، لم يجعله مرتبكاً وهو يدخل إلى عالم الرواية، ويبدو في روايته الأولى متمرّساً وعلى معرفة تامة بالأمكنة التي يقصدها، ذا دراية في تفكيك محنة شخصياته التي يأتي بها لتكون معبّرة ربما عن آرائه وأفكاره. وهو يكتب بدمع العين حيث لا يُخفي انحيازه الواضح إلى أبطاله بأقصى الحدود.

«تغريبة حارس المخيّم»، رواية مميّزة، لا يمكن إغفالها عند الحديث عن المنجز الروائيّ الفلسطينيّ. وبهذا المعنى، هي تحتاج إلى المزيد من الدارسة والتقييم.

مكتبة «البناء»

«حياتي زورقٌ مثقوب»

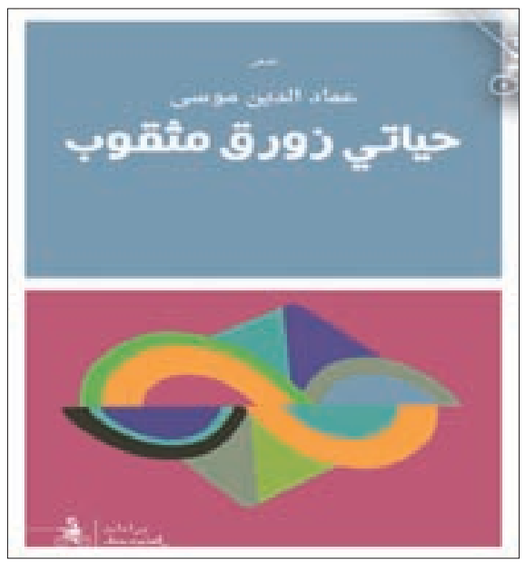

عن منشورات «المتوسط» (ميلانو ـ إيطاليا)، صدرت للشاعر السوري عماد الدين موسى مجموعته الشعرية الثالثة، بعنوان «حياتي زورقٍ مثقوب». المجموعة تتألف من 72 صفحة تتوزّع على 29 قصيدة نثرية، ثلاث منها بلا عنوان. ويغلب عليها التغنّي بالطبيعة والذات، والترنّم بعذاب الإنسان الضائع الذي يبحث عن مرفأ له في العالم. يقول في قصيدة بعنوان «المرفأ»:

«أيتها الموجة
أيتها الموجة
التي ربما
دفعتها الريح لارتكاب حماقة كهذه
ها أنا ذا أغرق
وكذلك أنت
وما من مرفأ»!

يعتني عماد بتركيب النصّ والمقطع الشعريّ، فاللغة المركّبة بشكل مختلف ومختزل، عنصر مهمّ في بناء القصيدة لديه، لذلك يمكن تسميتها بالقصيدة الماهرة أو الذكية لأنها منحوتة بعناية في زحمة مشهد الشعر اليوم، إنها عناية اشتهر بها عماد في كتبه السابقة وهي سِمة ميّزت نصوصه كلّها تقريباً:

«الفتاة التي تعرج في الحبّ
الفتاة التي تعرج في
الفتاة التي تعرج
الفتاة التي
الفتاة»!

كما يحاول الشاعر الوصول إلى مرفئ مستقرّة لنصوص ما زالت تعشق الإبحار، ففي وقت تغرق نصوص اليوم بالسرد والهوامش والابتعاد عن الأعماق، يصرّ عماد على وضع علامات ضوئية على جزره التي يبحر صوبها في كل سفر أو استكشاف، تلك العلامات تؤكّد شغله الدائم على موضوع الاختلاف في النص. ميزة تظهر بثقة في نصوص المجموعة كلها.

الشاعر عماد الدين موسى من مواليد عامودا في سورية. وقد أسّس مجلة «أبابيل» المتخصّصة بالشعرين العربي والعالمي وترأس مجلس تحريرها.

«مخمل»

أصدرت الفلسطينية حزامة حبايب روايتها الثالثة بعنوان «مخمل»، وهي عبارة عن رحلة البحث في دهاليز المخيّم الفلسطيني، لالتقاط الهموم الصغيرة التي يعيشها الناس في يوميّاتهم من البؤس والشقاء والصراع من أجل البقاء.

وتقدّم الكاتبة في هذه الرواية، الصادرة عن «المؤسسة العربية للدراسات والنشر» في بيروت ومكتبة «كل شيء» في حيفا، المخيم الفلسطيني عارياً تماماً على نحو غير مسبوق في تعاطي السرد الفلسطيني مع ثيمة المخيم وعوالمه.

وبعيداً عن الخطابات التنظيرية الكبرى حول الهمّ الوطني والقضية الكبرى والمركزية، ترصد حزامة حبايب الهموم الاجتماعية والاقتصادية وحتى الثقافية لأهل المخيم، من خلال شخصية «حوّا» وعدد كبير من الشخصيات الروائية.

عبر تلك الشخصيات، تختزل حزامة حبايب حياة المخيّم الفلسطيني على نحو مكثّف ومفصّل في الآن ذاته، بأسلوب ينقل المشاعر والأحاسيس، وينقل القارئ بحساسية فائقة إلى ما يجري في عتمات البيوت.

في «مخمل»، تعتمل مشاعر الحبّ والقهر والعناق والانتهاك، لتشكيل مشهد موغل في الواقعية، لكنه يكتسي أحياناً كثيرة بصبغة الحلم الفانتازيا، ضمن بناء سرديّ غنيّ يزخر بلحظات مذهلة وصادمة.

وكانت الكاتبة قد أصدرت «أصل الهوى» بطبعتين (2007، 2009) و«قبل أن تنام الملكة» (2011)، اللتين كرّستاها كواحد من أبرز الأصوات الروائية في المشهد السردي العربي. وإلى جانب أعمالها الروائية، ألّفت حزامة حبايب أربع مجموعات قصصية، إضافة إلى مجموعة نصوص شعرية.

«أحلام مستعصية»

رواية جديدة للأديب المهجري طلعت العبد الله ـ رئيس رابطة الكتّاب والمثقفين المغتربين اللبنانيين ـ صدرت عن «دار الفارابي» في بيروت، بعنوان «أحلام مستعصية» وهي عبارة عن روايتين قصيرتين ومجموعة قصص.

وكان العبد الله قد أصدر روايتين، الأولى بعنوان «يوم من خريف العمر»، والثانية بعنوان «عذاب الذاكرة» التي ترجمت إلى الفرنسية، وأهداها إلى الرئيس الكونغولي سانيونغسو، وإلى الحكومة والشعب الكونغوليين، عربون وفاء من المؤلف الذي قضى في الكونغو أكثر من ثلاثة عقود.

«جدران تونس»

كتب الأستاذ التونسي في جامعة روما ـ إيطاليا عزّ الدين عناية: حازت الثورة التونسية موضع مركز الثقل وسط حراك كوني، هزّ أطرافاً عدّة من عالمنا الراهن، وفق توصيف أستاذة التاريخ السياسي في جامعة روما لاورا غواتزوني. فالاستثناء التونسي جديرٌ بالتمعّن بعين فاحصة، داخل خصوصية التاريخ السياسي والاجتماعي لهذا البلد، وداخل الإطار الجيوسياسي الذي تدور في فلكه تونس.

يندرج كتاب المستعربة الإيطالية لوتشي لاكوانيتي المعنون بـ«جدران تونس» والصادر عن «منشورات إيكسورما» في روما، ضمن هذا التملي في الاستثناء التونسي، من خلال التأريخ لفنّ الشوارع العفوي «فنّ الغرافيتي» الذي اجتاح البلاد، والذي تحوّلت بموجبه الجدران الصامتة إلى صفحات ناطقة لكتابة خواطر الناس. فالكتاب عبارة عن تقرير فنّي عبر جدران تونس وشوارعها، خلال الفترة المتراوحة بين 2011 و2014، تستعيد عبره لوتشي أصوات الحالمين في الأرض. فثورة تونس هي ثورة لفنّ البسطاء أيضاً، ولأحلام الناس الذين طالما كُمّمت أفواههم.

كنتُ قد عرفتُ لوتشي لاكوانيتي منذ سنوات، حين كانت طالبة تتردّد على محاضراتي في كلّية الدراسات الشرقية في روما، وقد لمحتُ فيها شغفاً بالدارجة التونسية إلى جانب الفصحى، حتى أني كلّما لاقيتها أترك الإيطالية جانباً لأتحادث مع تونسية. أيقظتْ في داخلي شجناً إلى أزقّة تونس وساحاتها، حين حدّثتني عن مخطط بحثها، الذي ليس حشداً لرسوم وشعارات، بل هو تدوينٌ بالنصّ والصورة لسنوات لاهبة في تاريخ هذا البلد، قبل الثورة وبعدها. وهو بالفعل ما تبيّن لي عقب صدور الكتاب في 176 صفحة، فقد وجدتُ المؤلّف رصداً فنّياً نبيهاً لتحفّز تونس لبناء كتلتها التاريخية ـ بالمفهوم الغرامشوي ـ أملاً في النجاة، في ظلّ بحر لجّي عربي يغشاه موج من فوقه موج. حيثُ تبني تونس نموذجها بحكمة وبصيرة لتسوية تلك الإشكالية المزمنة، بين الإسلام السياسي والدولة المدنية، وهي المشكلة التي ضلّت طريقها في بلاد عربية أدمنت التعاطي اللاعقلاني مع الظواهر الدينية.

فاللافت في كتاب لوتشي لاكوانيتي أنه توثيق مزدوج بالكلمة والصورة للتحوّل الذي شهدته تونس، كما خربشت وقائعه أنامل محترفة وأخرى مبتدئة، لعقول مسيّسة وقلوب حالمة. يأخذك فيها الكتاب من سحر الشابي في «وأطلّ الصباح من وراء القرون» إلى حكمة القول الشعبي «الجوع كافر بالله».

«يشتدّ بي الأزرق»... حين تُنتشَل القصيدة من فخّ انتظارها المقيت!

النمسا ـ طلال مرتضى

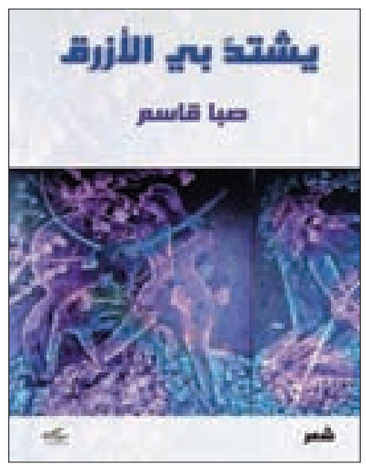

«لو كان للوقت رائحة
لصنعتُ من انتظارك عطري!

تلملم أشتات الهواء، تلك غواية الكلام حين ينفرط كعقد ماسيّ دوّح الورق الظمأ لسطوة الحبر، لترتمي في نداوة القصيدة الغارقة في مرمى اللغة المتقدة من قلم وزيت. الشاعرة صبا قاسم تفتح فرجار الشعر على مصراعيه، تنتشل القصيدة من فخّ انتظارها المقيت لتُوقع متلقّيها الرهيف في شبهة النص:

إنّي في شتاء من أمري
إنّي في شهقة من يُسراك
مدّ لي الأخضر
كي أستطيل بقليلي
إلى كثيرك.

«يشتدّ بي الأزرق»، المجموعة النثيرة وباكورة أعمال الشاعرة السورية صبا قاسم، الصادرة عن «دار أرواد للطباعة والنشر والتوزيع»، تضمنت نوعين مما نطلق عليه المنثور، وهو ما ترك متّسعاً رحباً للشاعرة وهي تقفز كفراشة شرهة الزهور، ما بين القصيدة التي اعتدناه وفي ما يطلق عليه «هايكو» الذي تجلّى على شكل رسائل وجدية تحمل في جوّانيتها عبث الشوق المفتعل إلى نصفها الآخر تارة:

عندما يبزغ فجرك
في صباحاتي
أحتسي تقاطيع وجهك
مع سكر ما تبقّى
من زيارتك الأخيرة لأحلامي.

وتارة أخرى عندما تنزاح كأسيرة لعصف الكنايات التي وسمت بها قصائدها الطويلة واستحضارها للمقولة ـ الأسطورة ـ ليتجلّى نصّها حوارياً وافر الصوَر متجاوراً كسر النمط لتبيان دلالاته:

كلما لاح موجه عن وَلَهٍ
اشتدّ بي الأزرقُ
لأُطبق شفاهَ الجنون
علىَ عتبة سمائه:
عم بحراً أيّها المعنى
عم سماءً أيها الضياء.

وفي مقام آخر، عملت الشاعرة على مماهات صوتها لتأخذ مجداف القول نحو أقصية وفلوات، وحدها من يقرّر رسمها، عبر الولوج إلى عمق متلقّيها. ما فتح أمامها نوافذ التخيّل، التي زادت من انسكاب الرؤى، والتحوّل من الكتابة المفترضة إلى حالة حراك ذهنيّ متواتر، ولّد صوَراً تخيّلية تحمل طابع الفرادة، ما بين غموض المعاني، والاستعارات القريبة:

اسمح لي أن أفضّ ذكورة العمر
فوق بياض الانتظار الأوّل
أن أؤدّي صلاة الغائب
على أضرحة القصص المنتشرة
على طول خطّ حياتنا
على كأس ضلّ قدسيّته
وتقطعّت به الأنخاب
ليحطّ سُكْره هنا
فيَّ
ها هو مجد أوفيد
تحاكيه قيثارة الخلود
ها هو يعيد صوغ روما
وها هو لوركا يغنّي القمر الإسبانيّ
بالكثير من أعراس الدم
وأنت المسكون بملامح غوته وروح فاوست
ما زالت ثمارك الخريفية فوق الـ«هُنا»
الممكنة.

استنباطاً، بقيت قصائد الشاعرة قاسم تحت تأثير صوتها الأوحد، لتكون ضمير المتكلّم الحاضر:

أنثى بحجم الماء
ثقيلة ذاكرتها في ميزان الفرح
خفيفة
خفيفة بوزن
الحبّ
ثمّة أنا.

وفي الغائب:

أما حلمي الكبير
إن لم تتسع له الحقيبة
فانفخ فيه من روح هرمك الكبير.

ثمّة روح متمرّدة تغفو طيّ صدرها كبركان خامد، وارت الشاعرة ملامحه النازفات بشجيّ القول لتصل إلى مبتغاها:

أصابعك مبصرة وجسدي ضرير
أصابعك انفجار وجسدي قبلة موقوتة
أصابعك النار
ضجيجك يعربدُ من زمنٍ «أعطني حرّيتي» لا يأسره إلا إطلاق يديه.

الشاعر عيسى الشيخ حسن يسأل: أليس بعض ما في النصّ يكفي، كي نقيم بلاغة مجنونة فوق السطور؟

تلملم صبا قاسم قصائدها المتمادية في الشروحات، تطوي صوتها المبحوح كعزف ناي دامع، حين احتضار قصيدة موزونة:

رهينة الماء
كانت
ومن بين الأصابع
تسيل كالحياة
ومضةٌ على طرف العين.